إهداء

إلى مَنْ يتغيَّون الأدبَ الراقيَ،
إلى من يرُومون النَّفَسَ العالي،
إلى عُشَّاقِ الحروفِ وسَدَنَتِها،
إلى مُحبِّي الفضيلةِ وحُرَّاسِها،
أبوخالد

obeikandl.com

obeikandl.com

" وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان "

الزعيم مصطفى كامل

" لقد شارك الأوائل عقولهم بفكرهم، ونزع إليهم بحنين وفاؤه لأهل عصره بالبيان حين استعجمت قلوبهم، وارتضخت عربيتهم لكنة غير عربية، ثم صار إلى أن أصبح ميراثا نتوارثه، وأدبا ننتدارسه، وحنانا أنأوي إليه "

الأستاذ محمود شاكر

obeikan.com

obeikandl.com

الرافعي: ولعٌ مُتجددٌ

هذه أمشاجٌ متباينة من مقالات ودراسات حول منجز أديب العربية مصطفى صادق الرافعي (1880 - 1937م = 1298 - 1356 هـ) ترصد جوانب متعددة من فكر الرجل، كما ترصد نظرته إلى بعض القضايا الأدبية والاجتماعية والسياسية وتناوله لها ومعالجته إياها، وهي تأملاتٌ مقتضبةٌ نرمي من ورائها إلى الوقوف على دوره في معالجة قضايا مجتمعه، فكثيرٌ من الأدباء يعيش حياته للأدب والقلم بمنأى عن التفاعلات المجتمعية التي تحيط به، ويختار التحليق في عالم افتراضي غيرَ مكترثٍ بما يموجُ حوله من أحداثٍ جسامٍ.

لقد سبَّب مرض الرافعي بالصمم واحتباس الصوت له عزلةً نسبيةً عن محيطه؛ لكن ذلك لم يمنعه من التجاوب مع الأحداث من حوله، فـ"كتاب المساكين" أخرجه في أتون الحرب العالمية الأولى وما جرَّته على البشرية من ويلات، كما نشط للدفاع عن القضية الفلسطينية وفي القلب منها "القدس"، وكانت كثير من مقالاته في "الأهرام" و"البلاغ" و"المؤيد" و"السياسة" تفاعلًا مع الأحداث التي يموج بها العالم من حوله، وفي هذا السياق عثرتُ على كثير من المقالات التي كتبها الرجل في السياسة ورموزها ولم ينشرها في كتبه

لتغير الظروف السياسية وتعاقب الوزارت وتقلُّب الولاءات بين الأحزاب، أو لضياعها كما أشار في بعض رسائله إلى "محمود أبو رية".

والحقيقة أنَّ للرافعي خصوصية واضحة بين أقرانه من كُتَّاب عصره.. نعم كانت الرمزية سمة مميزة لكتاباته؛ لكنه لم يُغرق فيها إلى الحد الذي يخرجها عن إطار الإبداع الأدبي إلى الكتابات الفلسفية التي تستعصي على الفهم وتأباها النفس، وكان له تفكيره المتفرِّد عن غيره، ولطالما رأى في نفسه ما لا يراه الآخرون، وهو ما جعله هدفًا لسهام الآخرين في شعره ونثره، ولا أجدُ رجلًا تعرَّض لظلم التاريخ والنقد كما هذا الرجل، فبسبب من اتجاهه المحافظ أُخِّر عن مكانته التي تليق به، ولم يحظ بنفس الاهتمام الذي أحاط برموز عصره الأقل شأنًا في الميادين المختلفة، ورُمي باتهامات أغربها أنه أسير اللفظة القرآنية، وهو أمر جد عجيب! فمنذ متى كانت اللفظة القرآنية معيبة لصاحبها؟!

إن بعض النقاد لم يُنصفوا في نقدهم للرجل، نعم هو ليس فوق النقد؛ لكنهم غضُّوا الطرف عن النصف الآخر من الكوب، فعندما تُخضع الأستاذة نعمات أحمد فؤاد أدب الرافعي لمعاناته مع المرض والفقر فتتبع بعض كتاباته ورسائله، وتحاول جهدها التقليل من شأن الرجل انتصارًا لأستاذها بشكل غير مباشر؛ فهذا مما يبعث الحزن في النفس؛ إذْ صار العلم تصفية حسابات، واختل ميزان النقد الأدبي حتى طاش!

لم يكن الرافعي منغلقًا على التراث كما أشاعوا؛ بل كان - بالإضافة إلى تبحره المائز في التراث - مُطَّلعًا على ما يكتبه الغرب، ومن المبكرين إلى كتابة المسرحية - التي هي في الأصل نتاج غربي - وقت أن كانت قالبًا جديدًا، كما لم يجد غضاضة في الاستفادة من أدبيات الغرب باعتبارها منتجًا بشريًّا يؤخذ منه ويُردّ، لكنه امتشق قلمه في الوقت ذاته ليواجه رياح التغريب العاتية التي بذلت الوسع في طمس هوية الأمة وإذابة مقوماتها الدينية والتاريخية واللغوية، وإحلال الأفكار الهدَّامة التي تجافي أعراف المجتمع وتسلبه معالمه.

إن حجم المؤامرة على الرافعي الأديب والمفكر من الضخامة بحيث يتناسب طرديًّا مع حجمه الحقيقي، ويكفي أنه لم يحظ طيلة حياته ولا اسمُه من بعده بنوع تكريم من الدولة التي صاغ لها النشيد الوطني، ونافح عنها ضد المحتل الإنجليزي، على حين حظي به الموقوذة والمتردية والنطيحة ممن حملوا الأقلام زورًا وبهتانًا، وتقلَّبوا بين قصور الحكام؛ بل إن بين رموز الثقافة في بلادنا من يسعى سعيًا حثيثًا في محاربته وطمس معالم أدبه، حتى إن أحدهم قال لصديق لنا اقترح عليه إقامة مؤتمر عن الرافعي برعاية الدولة: "اثنان لا تُحدثني عنهما؛ لأنهما لن يحظيا من الدولة بشيء: الرافعي ومحمود شاكر".

وأذكر بأسى كيف ردَّ أحد أساتذة النقد الحديث المبرزين ذوي الحضور الإعلامي الطاغي على طالب له اقترح تقديم أطروحته للماجستير

عن الرافعي، لقد نظر إليه الأستاذ شذرًا ثم قال معنفًا: "نحن كليةٌ محترمة لا ندرس فيها الرافعي وأمثاله! "، إلى هذه الدرجة لم يقنعوا بمحاربته حيًّا؛ بل تعقَّبوا امتداد الرجل ومدرسته من بعده.

ورغم الحرب الضروس التي شنَّها البعض على الرافعي منذ بزغ نجمه؛ إلا أن كتبه ما زالت ملء السمع والبصر، يُسارع إليها الطبيب والمهندس قبل الأديب واللغوي، وكاتب هذه السطور مدينٌ في وصله بأدب الرافعي لأخوين شقيقين هما أحمد ومحمد تركي، ومن عجبٍ أن الأول كان معلمًا للغة الإنجليزية والآخر مهندسٌ ميكانيكي!! وكم رأيتُ كلا منهما مولعًا بأبي السامي يستظهر كلماته ويستأنس بعباراته.

يتناول هذا الكتاب عدة موضوعات مختلفة تدور حول الرافعي وأدبه، منها: "الرافعي واستلهام التاريخ"، و"عن مسرحيته المجهولة"، و"الفقر وكيف تناوله أدب الرافعي"، و"القدس في قلب الرافعي"، و"معركة شعراء العصر"، وكلها موضوعات تبرز جوانب غائبة من أدبه على النحو الذي سيبرزه هذا الكتاب الذي ذيلتُهُ بعض الملاحق المفيدة لكل من يتصدى لدراسة الرافعي وأدبه، فثمة ملحق بالدراسات العلمية التي تناولته، ثم بيانٌ بالرسائل العلمية التي أُعدت حوله، فضلًا عن بعض المراجع العامة الأخرى، وكذا أهم الفعاليات التي نُظمت بشأنه في ضوء ما توافر لي من بيانات أولية محدودة، وكلها إحصاءات

فردية تحتاج إلى جهود أكبر لعل من باحثينا من يضطلع بها.

وهذا الكتاب ليس - كما قد يظنه البعض - ترويجًا لأدب الرافعي ولا تمجيدًا لشخصه، فالكتاب لا يخلو من نقده في غير موضع على النحو الذي سيلمسه القارئ الكريم بنفسه؛ إنما هو محاولة - أتمنى أن تكون جادة - لوضعه في المكانة التي تليق به في الحياة الفكرية باعتباره أديبًا مبدعًا ولغويًّا وناقدًا.. وقبل هذا وذاك مفكرًا له إسهاماته التي تحتاج إلى قراءة متأنية للكشف بجلاء عن عقلية بعيدة النظر ذات عمق فكري ومكون معرفي أصيل، فكم من أدبيات لم يُكتب لها الخلود وانتهت صلاحيتها مع تعاقب الزمان!

والآن أترك القارئ الكريم يقلِّب هذه الصفحات الموجزة علَّه يجد فيها بعض سلواه، والله نسأل أن يتقبلها بقبول حسن وينفع بها كل من يتغيَّا الحقيقة في عالم الفكر والأدب.

وليد عبد الماجد كساب

مصر - القاهرة

عَشْرُ الرحمة من رمضان 1436 هـ

يونيو 2015م